

# تحديات بيئية وإستراتيجيات محلية في الصحراء الغربية

مَتَّى پُرْجَس

يجد اللاجئون الصحراويون من البدو طُرُقًا للتصدّي لما يقع عليهم من التحديات المترابطة التي لها بتغيّر المناخ صلة. وتظهر استجاباتهم عِظَمَ شأنِ المبادرات المرنّة التي يقودها اللاجئون.

السكّانية في المخيّمات والأراضي المحرّرة يُسيّسها كلٌّ من المغرب والبوليساريو، وهي، أي التقديرات، معقّدة بسبب استمرار تنقل العوائل والأفراد بين أراضي البوليساريو وشمال موريتانيا، وأيضاً بسبب هجرة العمال الموقّته من المخيّمات إلى إسبانيا والجزائر. ولذلك تُفهم أرقام المقدّرة لأعداد السكّان فهماً أفضل، ولا سيّما في المخيّمات، إذا نُظِرَ إليها على أنها لقطات لمجموعة من السكان دورانية باستمرار<sup>١</sup>.

ثم إنّ قسوة المناخ الصحراويّ إلى جانب اعتماد السكان منذ زمن بعيد على الرّعي الترحلي (للإبل والمعز والخراف) تركت السكان شديدي عُرْضةً للمتغيّرات المناخية. إذ أثار وقوع حالات القحط الكارثي في خلال الاستعمار توسّعاً حضرياً سريعاً (ولكنّ موقّتهاً)، وتألّف كثير من السكان الرّحل المتفرّقين هنا وهناك حول المدن التي كانت تسيطر عليها

يُولى نزاع الصحراء الغربية اهتماماً خاصّاً، ولا سيّما من زاوية نظر دراسات اللاجئين ودراسات الهجرة القسريّة، وقد ركّز أكثر هذا الاهتمام، ركّزاً مفهوماً سببه، في مخيّمات اللاجئين الصحراويين قُربَ تندوف في الجزائر. نصّبت هذه المخيّمات في سنة ١٩٧٥، بعد اندلاع الحرب بين المغرب والجهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب (وهي حركة من الصحراء الغربية تؤيد الاستقلال) وتعرّف أيضاً باسم 'جهة البوليساريو'، ويبلغ عدد ساكني هذه المخيّمات نحواً من ١٧٣ ألف صحراويّ، وهم الشعب الأصليّ في الصحراء الغربية. وتُدير البوليساريو المخيّمات، وفوق ذلك ٢٠٪ من أراضي الصحراء الغربية، وهي منطقة تُسمّيها الجهة الأراضي المحرّرة. ويعيش في هذه المنطقة نحو من ٣٠ ألفاً إلى ٤٠ ألف إنسان (على أن إحصاء أعداد السكّان هناك أصعب)، وأكثرهم من الرّعيان الرّحل. والواقع أن التقديرات

فإن غير المنتظم من أمطار هطّل الأمطار والقحط الذي يطول أمده، يُصعّب الاعتماد على مصادر المياه سريعة الزوال، ويَزيدُ أيضاً الضغط على طبقة المياه الجوفية في تندوف. ويمكن تخفيف هذه المشكلة بعض التخفيف باستعمال الآبار المحفورة ميكانيكياً. ثم إن إنشاء موارد المياه الاصطناعية في الأراضي المحررة أيضاً أتاحت إنشاء الحدائق المجتمعية، مع ظهور مشاريع البستنة التي تديرها البوليساريو في عددٍ من المواضع.

### التحديات المناخية والاستجابات المناسبة

فَهَطَّلُ الأمطار الذي يعتاص توفُّع أحواله، والقحط العام، واستنفاد المياه الجوفية، مشكلات واقعة على الرّحل واللاجئين، ولكن أهالي مخيمات الصحراء الغربية غير معتادين عليها، فاحتفظ برابط بين اللاجئين والرّحل. وتُعرّف عالمة الأناسة (أنثروبولوجيا) سِندي هُرسْت، التي كتبت عن اللاجئين الصوماليين الرّحل في مخيم داداب، تراث الصوماليين الرّحل، تقول: "إنه متكوّن من ثلاثة عناصر: عقلية البحث عن مراعى أكثر خصرة، وشبكة اجتماعية متينة يلتزمون فيها مساعداً ببعضهم بعضاً في البقاء، والحد من احتمال الأخطار من خلال التوزيع الإستراتيجي للاستثمارات في أفراد العائلة والأعمال". وتستمر هذه العقلية الترحلية، في مجتمع محلي مستقر، على هيئة انتهاز الفرص، والمرونة، والتماسك الاجتماعي، ومقاومة النقاط الفردية في الإفخاق الاقتصادي، وهي إلى حد بعيد القيم التي ينسبها اللاجئين الصحراويون إلى تراثهم البدوي. وحينئذ فكل إستراتيجية للقدرة على الصمود للمناخ، تُنفذ في مخيمات تندوف، ينبغي لها أن تسد ما بين اللاجئين والرّحل من الهوة.

وربما لم يكن من المستغرب أن أكثر الإستراتيجيات التي يُرجى خيرها ناشئة من الأهالي أنفسهم. ففي سنة ٢٠١٦، ابتدأ طالب إبراهيم، وهو لاجئ صحراوي دَرَس الهندسة في سورية، تجربت الزراعة المائية. والزراعة المائية هي تربية النباتات بغير تربة، وأكثر ما يكون بغط الجذور في ماء مُضاف إليه مواد مغذية مُحسنة. وكفاية الماء في الزراعة المائية أعلى كثيراً من معظم طرق الزراعة الأخرى، ولهذا كانت إستراتيجية يُرجى خيرها في الزراعة المُشددة في المناخ المُفحل. وكان أول محصول مالي لإبراهيم شعيراً، وهو محصول يسير التربية جداً. فقد استطاع إبراهيم باستعمال أول منظومة مائية بيتية، إطعام معزه، فمن جهة قلل من حاجته إلى الألتقال بحثاً عن مرعى، ومن جهة أخرى زادت جودة الحليم واللحم

إسبانيا. ومثل ذلك، أن كان من نتائج مجاربة المغرب، التي استمرت حتى سنة ١٩٩١، أضراراً شديدة بالاقتصاد الترحلي. ومنذ أن كانت الحرب، أقام معظم السكان في مخيمات تندوف. وبعد انتهاء الحرب بين المغرب والبوليساريو، بذلت البوليساريو - التي تحتفظ لنفسها من قطاعان الإبل الشيء الكثير - جهداً يُضافُره جهداً، لتنمية الأراضي المحررة، ولا سيما للرعى الترحلي، وذلك بإزالة الألغام الأرضية في نطاق واسع، وتهئية الآبار وصيانتها، وتجديد الاقتصاد الترحولي.

وأنت الإقامة في المخيم بتحديات لا مثيل لها، وقعت على من كانوا سابقاً سكاناً رَحَلًا، وكثير منها زاد سوءه في العقود الأخيرة بسبب تغيير المناخ. وقد تَلَقَّيت محاولة المنظمات غير الحكومية الحث على الزراعة المُستقرّة - مثلما استثمرت أكسقام في زراعة نبتة متعددة النفع اسمها الشوع (*Moringa oleifera*)<sup>٢</sup> - تَلَقَّيت بُنْجَح متباين، وبعض السبب في ذلك أن أهل المخيم هم بالرعى الحيواني أدرى. ومن المشكلات التي تتزايد أخطارها هي اشتداد تكرّر وقوع الفيضان في المخيمات. إذ بدلاً من أن يُصيَب صحراء الجزائر حَوْل تندوف انخفاضاً مطرداً مستمر في هَطْل الأمطار، أصابتها مَدَد قحط طويلة تخللها هَطْل أمطار سريع الزوال إلا أنه شديد جداً. وكان في المخيمات أول الأمر بُنَى شبه دائمة، بناها اللاجئين من الآجر (الطوب) الطيني، مُستعملين مواد من مصادر محلية. وفي بعض الحالات، رفض اللاجئين البناء بواد أقوى للدائمة لأسباب مذهبية (إيديولوجية)، مُفضّلين أن يبقوا دوماً مستعدين للعودة إلى الصحراء الغربية، إلى دولة مستقلة في المستقبل. فأصبح الفيضان، الذي كان في المنطقة أمراً نادراً، يكاد يكون حدثاً سنوياً. وفي سنة ٢٠١٥، مثلاً، انحلت كثير من بيوت الآجر الطيني في الأمطار الغزيرة، فكان أن بقي مئات من اللاجئين بلا مأوى. وأما البناء بالمواد المقاومة للماء، مثل الأسمنت، فيؤدي إلى تخفيف المشكلة إلى حد، على أن إنتاج الآجر الطيني في المخيمات هو وظيفة لكثير من اللاجئين.

ثم هناك مشكلة أخرى زاد سوءها تغيير المناخ، وهي استنزاف المياه الجوفية. فقد عمّد إلى بناء مخيمات تندوف بالقرب من طبقة صخرية كبيرة خازنة للماء، إذ تتوقّف حركة الرّحل في الأراضي المحر على تجديد المياه السطحية التي تحدث طبيعياً أو الآبار الصغيرة التي يصنعها الإنسان. ومع ذلك،



ها هو ذا طالب إبراهيم يعتني بنباتات تنمو بنظام الزراعة المائية.

المنتج وكميّتها (فالمعز في المخيمات يكثر أن تأكل النفايات اللدائنية، فتلوّث منتجاتها).

على أن الوحدات المعقّدة، الغالية الثمن، العالية التّقانة، ليست حلاً يقدرّون على التّوصّل إليه بأنفسهم. ففي سنة ٢٠١٧، بين إبراهيم نَجح منظومته الابتدائية بالأمثلة أمام القيمين على مبادرة مُسرّع الابتكار التي تتبع برنامج الأغذية العالمي، في ميونخ. فقد انتقيت منظومة إبراهيم لتُموّل من مبادرة مُسرّع الابتكار، ثم أنشئ برنامج يتبع برنامج الأغذية العالمي، يدعى اتش تو غرو (H2Grow)، عمل فيه إبراهيم فأنشأ وطور -مع موظفين من برنامج الأغذية العالمي ومنظمة أكسفام- مجموعة وحدات زراعة مائية، مشتقة من أمودجه الأول، فقلّلت كلفة الوحدة والإنتاجية هي هي. وكانت هذه الوحدات الجديدة أخص، واعتمدت على المواد المتوفرة محلياً، وكان استعمالها وإصلاحها أسير. ثم إنها يمكن أن تكلف بحسب المقتضى المحلي، وهذا شأنه عظيم. ثم ابتداء إبراهيم، بمعونة برنامج الأغذية العالمي وأوكسفام والبوليساريو،

إدارة ورشات الزراعة المائية في المخيمات، حتّى بلغ المتدربون فيها على استعمال المنظومات البسيطة التّقانة ألف لاجئ صحرائي. وفي إطار برنامج اتش تو غرو، امتحنت منظومات إبراهيم، منظومات الزراعة المائية، في مخيمات اللاجئين في تشاد والأردن والسودان وكينيا، وفي كل موضع، يمكن أن تُعدّل الوحدات وتُحسّن بحسب المقتضى المحلي. قال إبراهيم وحتّته بين يديه في خطاب ألقاه سنة ٢٠١٩: ”هذه تفسح للناس أن يكونوا بعضاً من الحلول التي يأتون بها هم.“، وأن يُجروا برامج معونة يقودها اللاجئون وتتركز همها فيهم.

### دروس في الصمود للمناخ

هاهنا عدّة من الدروس يمكن أن يستفاد منها في سياقات التهجير المماثلة لهذا السياق. أبينها، أن التّقانات وسُنن

أعدت هذه المقالة بمعونة لاجئين صحراويين وطالب إبراهيم وسيداحمد جوي.

متى پرجس [msp5@st-andrews.ac.uk](mailto:msp5@st-andrews.ac.uk)  
طالب درجة الدكتوراه، في كلية الأناسة الاجتماعية، بجامعة سنت أندروس  
@matthew\_porges

١. Porges M (2019) 'Western Sahara and Morocco: Complexities of Resistance and Analysis', in de Vries L, Englebert P and Schomerus M (Eds) *Secessionism in African Politics: Aspiration, Grievance, Performance, Disenchantment*. London: Palgrave.
- (الصحراء الغربية والمغرب: تعقيد في المقاومة والتحليل)
٢. انظر 'الصحة الحيوانية والبشرية في مخيمات اللاجئين الصحراويين'، جورجيا أنجيلوني وجينيفر كار، نشرة الهجرة القسرية، العدد ٥٨، ٢٠١٨.  
[www.fmreview.org/ar/economies/angeloni-carr](http://www.fmreview.org/ar/economies/angeloni-carr)
٣. Horst C (2006) *Transnational Nomads: How Somalis cope with refugee life in the Dadaab camps of Kenya*. New York: Berghahn
- (الرحّل العابرون الأوطان: كيف يتحمل الصوماليون معيشة اللجوء في مخيمات داداب في كينيا؟)
٤. من كلمة إبراهيم طالب، ألقاها في مؤتمر قمة الأعمال الاجتماعية النافعة، مدينة نيويورك، في ٢٣ سبتمبر / أيلول من سنة ٢٠١٩.  
[bit.ly/twitter-Brahim-22092019](https://bit.ly/twitter-Brahim-22092019)

ولمقاربة المشكلات من زاوية نظرهم هم، ولتجنب عواثر الحلول المطبقة من جانب واحد.

وأيضاً فمن المهم، من زاوية النظر إلى تموين المعونة، أن يُنظَر ليُرى كيف يختار المرء تعيين وسطاء المشكّلة. فقد تركّز المقاربة المحدودة للتحديات البيئية في تندوف على أماط هطل غير منتظمة، أو تراكم اللدائن في الأنظمة الغذائية (والمنتجات) للماشية المرّباة في المخيمات. على أن تفريج زاوية النظر ليشمل مشاركة اللاجئين في اقتصاد الرّحل، مثلاً، في الأراضي المحرّرة، يعني أن يُدرَج أمر القحط وفقدان المراعي في التحليل. وبعد، فينبغي لكل إستراتيجية بيئية شاملة أن تتضمن كل ما تقدّم ذكره من هذه الأمور المتشبكة. ولا يمكن أن تعالج سياسة بيئية واحدة مثل هذه التحديات المتباينة، ولكن الإستراتيجيات الفردية التي تدور حول اللاجئين، حققت بالفعل في تندوف والأراضي المحرّرة نجحاً يُرجى خيره.